

الإمام محمد متولي الشعراوي

جامع البيان في العبادات والأحكام

29

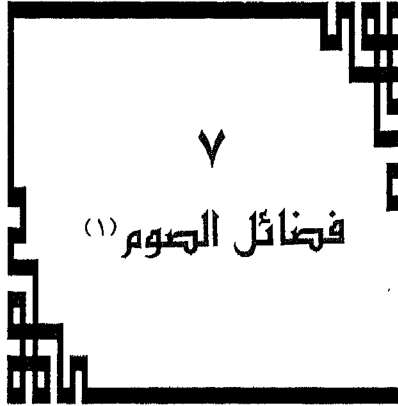
أشـــراف
فضيلة الشيخ
محمد بن علي السنراوي
المستشار بالأزهر

جمع المادة العلمية
منشاوي غانم جابر

كتب الحواشي وراجعها
إبراهيم ربيع محمد

٨

دار الندوة



٧
فضائل الصوم [١]

رسول الله ﷺ يقول: «اذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب

---

(١) **فضائل الصوم فى أيام مستحب الصوم فيها:**

■ **الصيام يوم النفل:**

أى الصوم ليوم فى الغزو لِجَمْعُهُ بين مشقة الغزو والصوم، لوجه الله طلبًا لمرضاته.

* عن أبى سعيد ﷺ عن النبى ﷺ قال: «من صام يومًا فى سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا».

أخرجه البخارى [٢٨٤٠]

■ **صوم شهر المحرم :**

شهر المحرم من الأشهر الحرم التى قال الله فيها: ﴿**إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم**﴾ أى ذات حرمة =

= وتعظيم وهي **المحرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة.**

شهر المحرم شهر به رأس السنة الهجرية، فإنهم كانوا يسمونه صفر الأول، لاشتماله على يوم فضله الله وهو يوم عاشوراء، فصيامه أفضل من كل شهر بعد رمضان رمضان، وقد تاب الله فيه على قوم من السابقين، ويتوب فيه على قوم من العصاة اللاحقين.

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل».

أخرجه مسلم [١١٦٣]

* وقال علي ﷺ جاء رجل فسأل النبي ﷺ: أي شهر تأمرني أن أصوم بعد رمضان؟ قال: «إن كنت صائماً بعد رمضان فصم المحرم، فإنه شهر الله فيه يوم تاب فيه على قوم، ويتوب فيه على قوم آخرين»

أخرجه الترمذي [٧٤١] وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي [١٢٠]

■ يوم عاشوراء:

وهو العاشر من المحرم أو تاسعه، فقد كان ﷺ يصوم اليوم التاسع مع اليوم العاشر من شهر المحرم، فابن عباس ﷺ أخبر بأن النبي ﷺ صام عاشوراء اليوم التاسع فقط، وصامها أيضاً اليوم العاشر فقط، فلما سمع أن أهل الكتاب تعظم اليوم العاشر قال: «لئن بقيت إلى قابل (أي العام القادم) لأصومن التاسع، أي مع العاشر وخالفنا أهل الكتاب الذين يصومون العاشر فقط» ولكن قال الشافعي وأحمد وغيرهما يندب (يستحب) صوم التاسع والعاشر لأن النبي ﷺ وإن صامهما منفردين، ولكنه نوى صومهما معاً إن طالت حياته، ولقول ابن عباس: صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود وكان بعضهم يصوم التاسع والعاشر والحادي عشر، وهذا أحوط.

* عن الحكم بن الأعرج ﷺ قال: انتهيت إلى ابن عباس وهو متوسد رداءه عند =

= زمزم فقلت له: أخبرني عن صوم عاشوراء فقال: إذا رأيت هلال المحرم فَاعْدُدْ وأصبح يوم التاسع صائماً قلت: هكذا كان رسول الله ﷺ يصومه؟ قال: نعم.

أخرجه الترمذي [٧٥٨] وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي [٦٠٢]

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى قال: «فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ.

أخرجه البخاري [١٨٩٢]

*** فضل صيام يوم عاشوراء:**

كان رسول الله ﷺ قبل النبوة يصوم عاشوراء تبعًا لقومه فإنهم كانوا يعظمونه ويصومونه، ولما هاجر ﷺ إلى المدينة صامه وأمر بصيامه حتى فرض رمضان فخيرهم في صيام عاشوراء ثم حثهم بعد ذلك على صيامه فصار سنه مؤكدة.

* وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية وكان رسول الله ﷺ يصومه في الجاهلية فلما قَدِمَ المدينة صامه وأمر بصيامه فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه.

أخرجه البخاري [٢٠٠٢]

وعندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة سأل اليهود عن سبب صومهم عاشوراء فقالوا: هذا يوم نجي الله فيه موسى وقومه، وأهلك عدوهم. وفي رواية قالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً لله فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: «نحن أولى بموسى منكم ثم أمر بصومه» فإننا واحد من أصول الدين ومؤمنون بما جاء به.

أخرجه البخاري [٣٩٤٣]

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: «ما هذا؟» قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم =

= فصامه موسى، قال: «فأنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه».

أخرجه البخارى [٤٦٨٠]

* وقال ابن عباس ﷺ : ما رأيت رسول الله ﷺ يتحرى صيام يوم فَضَّلَهُ على غيره إلا هذا اليوم يوم عاشوراء، وهذا الشهر شهر رمضان.

أخرجه البخارى [٢٠٠٦]

* عن أبى قتادة ﷺ أن النبى ﷺ قال: «صيام يوم عاشوراء إنى احتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله»

أخرجه الترمذى [٧٥٢] وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى [٦٠٠]

* عن أبى سعيد ﷺ عن النبى ﷺ قال: «من وسع على عياله فى يوم عاشوراء وسع الله عليه فى سنته كلها»

أخرجه البيهقي. وضعفه الألبانى فى مشكاة المصابيح [١٩٢٦]

■ صيام رجب:

كان النبى ﷺ يصوم أحياناً ويطيل الصوم، ويفطر أحياناً ويطيل الفطر، سواء فى رجب أو غيره. والأشهر الحرم هى: المحرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة، فرجب فردى بين شهرى جمادى وشعبان، والثلاثة متوالية متعاقبة، وسئل أعرابى عن الأشهر الحرم فقال: ثلاثة سُرُدٌ وواحد فرد.

ورسول الله ﷺ لما علم من الباهلى أنه يصوم الدهر وقد اضعفه ذلك فأرشده الى صوم يوم من كل شهر فاستنرادة (أى طلب زيادة) فأرشده الى يومين ثم إلى ثلاثة، فاستنزاده فأرشده إلى الصوم من الأشهر الحرم. وقال ﷺ أى أشار بأصابعه الثلاثة أى صم من كل شهر حرم ثلاثة أيام.

■ صيام شعبان:

كان رسول الله ﷺ يكثر من الصيام فى شعبان بل كان أحياناً يصومه كله. وعن =

= حديث النسائى عن أسامه: قلت يارسول الله لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان قال: «ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأحب أن يرفع عملى وأنا صائم».

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لايفطر، ويفطر حتى نقول لايصوم وما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر قط إلا رمضان، ومارأيته فى شهر أكثر صياماً منه فى شعبان».

أخرجه البخارى [٤/ ١٨٦] ومسلم [١١٥٦]

* وقالت أم سلمة رضي الله عنها : مارأيت النبى ﷺ يصوم شهرين متتابعين إلا شعبان ورمضان.

أخرجه الترمذى [٧٣٦] وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى [٥٨٨]

* عن عمران بن حُصَيْنٍ رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال لرجل: «هل صمت من سَرَر شعبان شيئاً؟» قال: لا، قال: «فإذا أفطرت فصم يومين».

أخرجه البخارى [٤/ ٢٠٠] ومسلم [١١٦١]

ـ السَرَر جمع سرة وهى الوسط أى الأيام البيض

وفى رواية: أَصُمْتَ من سَرَرَ شعبان؟.. قال: لا، قال: «فاذا أفطرت فصم يومين بدل ما عليك» هذا تأكيد لصيام شعبان.

■ **صيام سته أيام من شوال:**

من صام رمضان وأعقبه بست أيام من شوال فكأنه صام الدهر، لأن اليوم بعشرة أيام ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ فرمضان بعشرة شهور، والست أيام بشهرين، وصرحت بذلك رواية للنسائى، ولوصامها متتالية أو متفرقة كفى.

* عن أبى أيوب الأنصارى عن النبى ﷺ قال: «من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال فذلك كصيام الدهر»

أخرجه مسلم [١١٦٤]

■ **صيام عشرة أيام من ذى الحجة:**

وهى التى أقسم الله بها فى قولة تعالى: ﴿ **والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر** *=

= **والليل إذا يسر * هل فى ذلك قسم لذى حجر﴾** وهى العشرة أيام الأول من شهر ذى الحجة، وهى أفضل من أى وقت إلا من استشهد فى سبيل الله فدرجته أعظم.

* عن ابن عباس ﷺ عن النبى ﷺ قال: «مامن أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر» فقالوا: يارسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله؟ فقال: «ولا الجهاد فى سبيل الله إلارجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشىء».

أخرجه البخارى [٢/ ٣٨١]

■ صيام يوم عرفة لغير الحاج:

يوم عرفه هو اليوم التاسع من ذى الحجة وسمى بهذا لأن الحجاج يقفون فيه بعرفة، فصوم يوم عرفه (لغير الحاج) يكفر ذنوب السنة الماضية والسنة الآتية إن وقعت فيها ذنوب مغفورة، والمراد الصغائر، وإن لم تكن فيرجى التخفيف من الكبائر وإلا رفع له به درجات. (التاج الجامع للأصول: ٢/ ٩٥)

* عن أبى قتادة ﷺ عن النبى ﷺ قال: «صيام يوم عرفة إنى أحتسب على الله أن يكفر السنة التى بعده والسنة التى قبله» أخرجه مسلم [١١٦٢]

* عن ابن عباس ﷺ أن النبى ﷺ أفطر بعرفة وأرسلت إليه أم الفضل بلبن فشربه.

أخرجه الترمذى [٧٥٠] وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى [٥٩٨]

* وسئل ابن عمر ﷺ عن صوم يوم عرفة فقال: حججت مع النبى ﷺ فلم يصمه، ومع أبى بكر ومع عمر فلم يصمه، ومع عثمان فلم يصمه وأنا لا أصومه ولا آمر به ولا أنهى عنه.

أخرجه الترمذى [٧٥١] وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى [٥٩٩]

■ صيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام الدهر:

* عن أبى ذر ﷺ عن النبى ﷺ قال: «من صام من كل شهر ثلاثة أيام فذاك صيام الدهر» فأنزل الله عز وجل تصديق ذلك فى كتابه ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها**﴾ أى اليوم بعشرة أيام.

أخرجه الترمذى [٧٦٢] وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى [٦٠٩]=

= * وقالت معاذة العدوية ﵁لعائشة: أكان رسول الله ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر؟ قالت: نعم قلت: من أية كان يصوم؟ قالت: لا يبالى من أية صام.
أخرجه مسلم [١١٦٠]

■ **صيام الأيام البيض :**

أى الليالي البيض بنور القمر وهى ليلة الثالث عشر والرابع والخامس عشر.

* عن ملحان القيسى ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ يأمر أن يصوم البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة وقال: هن كهيئة الدهر.
أخرجه الترمذى [٢٤٤٩] وصححه الألبانى فى صحيح سند الترمذى [٢١٣٩]

■ **صوم الاثنين والخميس :**

فسبب الصوم يوم الاثنين أن رسول الله ﷺ ولد فى يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، وكذلك نزل عليه القرآن فى يوم الاثنين السابع عشر من رمضان، فميلاد رسول الله ونزول القرآن حدثان عظيمان. كذلك أن الأعمال تعرض على الله يوم الاثنين والخميس. (التاج الجامع للاصول: ٢/ ٩٧)

* عن أبى قتادة ﵁ أن عمر سأل النبى ﷺ عن صوم يوم الاثنين قال: «ذلك يوم ولدت فيه، ويوم أُنزلت علىّ فيه النبوة» أخرجه مسلم [١١٦٢] (٩٨)

* عن أبى هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملى وأنا صائم.
أخرجه الترمذى [٧٤٧] وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى [٥٩٦]

■ **صوم يوم وفطر يوم :**

* عن عبد الله بن عمرو ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أَحَبُّ الصيام إلى الله عز وجل صيام داود عليه السلام، وأحب الصلاة الى الله صلاة داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه»
أخرجه البخارى [٣/ ١٣] ومسلم [١١٥٩]

النار، وصُفِّدَتِ الشياطين»(1) فتحت أبواب الجنة لأهل المقاصد وعلى الله قصد السبيل، فالدين اوصلوا سرهم بالله صومًا، واخلصوا فى الله حبه، والتزموا بقرآنه، تدعوهم الجنة وتغلق أبواب النار، ولا يجد الشيطان له منفذا ينفذ إليه .. فهو شهر الروح بالحب، وشهر النفس بالإخلاص، وشهر العقل بالتفكير فى الله، وشهر الجسد بالهيام إليه .

ففى شهر رمضان..

* الصوم طاعة،

* والصوم فيه التزام بالطاعة.

الإنسان وهو صائم يبتعد عن كثير مما يغضب الله.. كأذى الناس، والنميمة والوقيعة.. وهكذا، كل هذا الامتناع يفتح لك أبواب الجنة.

وفى رمضان تكثر الصدقات، ويبتعد الناس عن أماكن اللهو، وتعمر بهم المساجد.. إلى آخر مانراه، ونشهده خلال شهر رمضان من كل عام.. وهذا باب من أبواب الجنة التى تفتح لك باب بعد الآخر.

أما إغلاق أبواب النار فهو يتمشى مع نفس المعانى، ذلك لأن الناس تبتعد خلال شهر رمضان عما يغضب الله، وعن المعاصى.. فكلما ابتعدوا عن المعصية قفل باب كان سيؤدى بهم إلى النار.

---

(1) أخرجه البخارى [٩٦/٤] ومسلم [١٠٧٩] .. والدليل على ذلك الحديث الذى رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»

أخرجه البخارى [٢٢١/٤] ومسلم [٧٦٠]

فلذلك أبواب النار تغلق واحداً تلو الآخر، وأبواب الجنة وتفتح باباً بعد الآخر حتى يستطيع المؤمن بالعمل الصالح أن يدخل الجنة و ينجو من النار.. كما جاء فى الحديث «إذا أقبل رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار» صدق رسول الله ﷺ.

وفى شهر رمضان.. «صفدت الشياطين».. أو «وسلسلت الشياطين».. أى سُلِبت منافذ الشهوة فى الإنسان، أو منعت منها فلم تعد تستطيع أن تزين للإنسان المعصية وهو صائم[1]. وهنا لنا استيضاح هو: أن بعض الناس يتساءل إذا كانت الشياطين قد صُفِّدَت أو سلسلت فلماذا لا تختفى المعاصى فى رمضان؟.. ونقول: إن المعاصى شقان..

* شيطان يزين،

*ونفس تأمر بالسوء والمعصية.

* فإذا كانت الشياطين قد

(١) قال عياض: «فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين» يحتمل أنه على ظاهره وحقيقته وأن ذلك كله علامة للملائكة لدخول الشهر وتعظيم حرمته ولمنع الشياطين من أذى المؤمنين، ويحتمل أن يكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو وأن الشياطين يَقِلُ إغواؤهم فيصيرون كالمصفدين.

وقال: ويحتمل أن يكون فتح أبواب الجنه عبارة عما يفتحه الله لعباده من الطاعات وذلك أسباب لدخول الجنه، وغلق أبواب النار عبارة عن صرف الهمم عن المعاصى الأيلة بأصحابها إلى النار، وتصفيد الشياطين عبارة عن تعجيزهم عن الإغواء وتزيين الشهوات.

(فتح البارى: ٢٤٩/٨)

المؤمنين، فإن النفس التى تأمر بالسوء مازالت موجودة، وشهوات الإنسان ورغباته مازالت داخل نفسه. وهنا نعرف أن المعصية فى شهر رمضان بالنسبة للمؤمنين إنما تكون من أنواع المعصية التى تأمر النفس[1] صاحبها بفعل السوء.

فإذا كانت منافذ الشهوة قد أغلقت أمام الشيطان، فالمعصية حينئذ تكون من النفس، والله سبحانه يقول فى كتابه العزيز فى سورة يوسف على لسان امرأة العزيز:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وهكذا نرى أن النفس تأمر صاحبها بالسوء، ولولا ذلك لما كان الإيمان هو جهاد النفس على طاعة الله، وعدم المعصية لله. ولو أن كل نفس تأمر صاحبها بالخير وتسد أمامه منافذ الشهوات ما جاءت الرسل تبين للناس منهج الله سبحانه وتعالى، وما نشأت الصراعات التى نراها بين الخير والشر إلى آخر ما نراه ونعرفه فى الدنيا.

إذن فمعنى أن الشياطين تحبس أو تسلسل ليس معناه إزالة المعصية، وإنما معناه أننا نعرف فى هذه الحالة أن المعصية التى نراها هى شهوة النفس وتطلعها إلى المعاصى، ولذلك فإن فى رمضان..

(١) لأن منافذ المعصية أما من النفس والشيطان والهوى. فالشيطان فى رمضان مصفد، وتبرز المعاصى فى رمضان من خلال النفس الأمارة والهوى.

(٢) سورة يوسف: الآية ٥٣.

* تقل المعصية إلى حد كبير،

* يزيد الخير،

* يقبل الناس على إتباع منهج الله.

ولكن الشيطان هنا قد فقد المنافذ التى يزين من خلالها للإنسان المعصية. ووجود المعصية يبين لنا أنه مازال هناك عناصر باقية تدعو لمعصية الله مثل النفس التى تريد أن تطلق لشهواتها العنان، ومثل رفقاء السوء من الإنس الذين يزينون للناس المعصية أولئك يكونون موجودين فى رمضان ويؤدون دورهم.

دعوة الصائم:

الصائم فى رمضان إنسان موصول بربه لأنه متجه إلى الله حقاً. والصائم لا يدخله النفاق ولا الرياء، لذا يتقبل الله سبحانه وتعالى الصائم قبولاً حسناً، فمن دلائل ذلك أن رسول الله ﷺ قال أن من بين الذين لا ترد دعوتهم: «الصائم حين يفطر»[1]، وقد خصت الدعوة عند الإفطار بالمقبول عند الله لأنها إعلان عن تمام صوم يوم من شهر رمضان.

وكثير من المسلمين يقرأون قول الله تعالى:

---

(١) عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين»

أخرجه الترمذى [٣٥٩٢]وضعفه الألبانى فى ضعيف سنن الترمذى [٤٥٤]



﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(١).

وحينما يقرأ المسلمون هذه الآية الكريمة يظنون أنها مقحمة بين آيات الصيام، وهذا خطأ كبير لأن كلام الله سبحانه وتعالى معجز ومنزه عن وضع الشيء في غير مكانه، ولذلك فإن هذه الآية الكريمة في مكانها تمامًا، لأن الصائم موصول بربه دائمًا؛ ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يوحي لرسوله محمد ﷺ بأن يبلغ الصائمين بأنهم إذا سألوه فهو قريب منهم يجيب دعواهم(٢). وحينما نتتبع كلمة ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ في القرآن الكريم نجد الجواب عنها مبدوءًا بكلمة ﴿ قُلْ ﴾ كما في قوله سبحانه: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾(٣).. ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾(٤) لكن: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾.. لم يبدأ الجواب بكلمة ﴿ قُلْ ﴾ فالجواب يأتي مباشرة من الله سبحانه وتعالى إلى عباده الصائمين، وهذا دليل على أنه ليست هناك مسافة بين الصائم وربه، لأن الصائم موصول بربه

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٢) قال ابن كثير: في ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام هي إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر، وكان عبد الله ابن عمرو يقول إذا أفطر: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفرلي. (تفسير ابن كثير: ٢١٩/١)

(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

دائماً، ومن كان موصولاً بربه فإن الله سبحانه يجيب دعوته ولذلك قال: ﴿ فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دِعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

ولكن المؤمن الطامع فى إجابة الله لدعائه لابد أن يلتزم بمنهج الله ولا يخالفه فالله سبحانه وتعالى قد دعا عباده إلى منهجه بقوله: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

ومن يدعو ربه ولا يستجيب له فلا يعجب لأن الخلل إنما يكون فيه هو.. فليصلح من نفسه حتى يجيب الله دعاءه(١).

فضيلة الدعاء:

نحن نعلم أن الإنسان فى الدعاء يجب أن يدعو لنفسه بالخير، وتلك هى الرغبة من وراء الدعاء، وعندما يتيقن الإنسان أن هناك أمراً هو خير له فإنه يدعو الله أن يحققه له.

لكن الإنسان قد يخطىء فيما يراه خيراً.. والخطأ لا يجىء من حب الإنسان للخير، ولكن عند ظنه أن بعضاً من الأمور تكون خيراً له، ولذلك تكون الإجابة بالمنع، ولذلك يجب ألا تفهم أيها الإنسان المؤمن أنك حين تدعو الله ولا

(١) سئل إبراهيم ابن أدهم من أحد مريديه ـ قال له: يا إبراهيم ما لنا تدعوا الله فلا يستجاب لنا ـ قال: لأن قلوبكم ميته، قال له: وما الذى أماتها، قال: عرفتم حقوق الله ولم تقوموا بحقه، واظهرتم المحبة لرسول الله ﷺ ولم تتبعوا سنته، وقرأتم القرآن ولم تتدبروا لمعانيه وقلتم نحب الجنة ولم تدفعوا لها الثمن، وقلتم نكره النار فأوقعتم أنفسكم فيها، وإذا قمتم من مقامكم إفترشتم عيوب غيركم أمامكم ونسيتم ربكم فكيف يستجاب لكم.

(محاسن الإسلام/ على رفاعى)

يستجيب لك أن ذلك هو عدم استجابة من الله[1].

إذن الدعوة التى دعوت بها يحميك الله منها، ومن المعروف أن الإنسان لا يدعو إلا بخير يظنه، وفى الظن قد يكون الخطأ فى التقدير.. فالعبد إنما يدعو عليماً حكيماً، لذلك فهو يعطى العبد خير ما سأل، والخير الذى يعلمه الله هو فوق الخير الذى يعلمه العبد، ولذلك فمن الخير ألا تجاب دعوة يعلم الله بعلمه الكامل أن فى هذه الدعوة لوناً من ألوان عدم الخير.. ولنضرب هذا المثل لتقريب الأمر لذهن الإنسان المحدود، ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾: إن الطفل قد يطلب من ولى أمره مسدساً، لكن ولى الأمر يماطل فى تحقيق مطلب الطفل.. فعدم الاستجابة لهذا المطلب هو معرفة نفسية الطفل، بعدم قدرته على التمييز، لذلك فمن الخير عدم الاستجابة لمثل هذا المطلب، لأن الطفل إذا امتلك مسدساً فهو لن يستخدمه على الوجه الصحيح، فقد يتعرض لأشياء أو أحداث تخرجه عن طوره فيستخدم المسدس بحمق فولى الأمر هنا عندما لم يستجب لطلب الطفل للمسدس إنما هو فعل الخير.. فما بالنا بالخالق العليم الحكيم؟

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾[2].

(١) عن سلمان الفارسى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الله حيى كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين».

أخرجه الترمذى [٣٥٥٦] وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى [٢٨١٩]

الصفْر: الفراغ من كل شىء.

وقال فضيلة الإمام الشعراوى فى كلامه: المنع عين العطاء وقد يكون العطاء نقمة.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١١.

إن الحق يعلم أن الإنسان يتعجل بطبعه[١]، لذلك فقد يخطىء الإنسان فيما يراه خيراً بينما هو شر. إننا قد نجد إنساناً فى لحظة غضب يدعو على ابنه بالهلاك[٢]، فهل هذا دعاء يمكن أن يقبله الله، وهو الخالق الأكرم العليم بالإنسان؟.. لا، إن الحق سبحانه يستجيب بالدعاء للخير فقط[٣].

وتضرب لنا السيرة النبوية أعظم الأمثلة التى يتعلم منها الإنسان أدب الدعاء لنستخلص العبرة والعظة.

فقد أصاب المدينة المنورة قحط شديد، وبينما رسول الله ﷺ يخطب على منبره قام رجل وقال:

ـ يا رسول الله.. هلكت الخيل، وهلكت الأغنام.. فادع الله أن يسقينا.

ودعا رسول الله ﷺ فأمطرت السماء أسبوعاً، وإلى أن جاء يوم الجمعة الآخر.

---

(١) عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لى».

أخرجه البخارى [كتاب الدعوات]

(٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث دعوات مستجابات لهن لاشك فى ذلك: دعوة المظلوم، ودعوة الوالد على ولدة، ودعوة المسافر».

أخرجه البخارى فى الأدب المفرد [٣٢]

(٣) فعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «يستجيب الله لأحدكم ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل» قالوا: وما الاستعجال يا رسول الله؟ قال: «يقول : قد دعوتك يا رب، قد دعوتك يارب، قد دعوتك يارب، فلا أراك تستجيب لى، فينحسر عند ذلك، فيدع الدعاء».

أخرجه البخارى [١١/١١٩] ومسلم [٢٧٣٥] (٩٢)

فقال رجل لرسول الله:

ـ يا رسول الله.. لقد تهدمت بعض البيوت من المطر.. فادع الله أن يحبس المطر.

فابتسم رسول الله ﷺ وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا»[1].. فابتعد السحاب ليمطر حول المدينة المنورة فقط. إن في هذه القصة عبرة لدعاء الإنسان، أجراها الله على عهد رسوله الكريم حتى يتعلم أدب الدعاء فلا يدعو بعجلة.

والحق العليم سبحانه يقول:

﴿خُلِقَ الإِنسَـانُ مِنْ عَـجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَاتِى فَـلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[2].

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أصابت الناس سنة على عهد النبى ﷺ فبينما رسول الله ﷺ على المنبر يخطب الناس فى يوم جمعة، إذ قام أعرابى فقال: يا رسول الله ! هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه وما نرى فى السماء قزعة، فو الذى نفسى بيده ما وضعهما حتى ثار سحاب كأمثال الجبال، ثم لم ينزل عن المنبر حتى رأيت الماء ينحدر على لحيته، فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد الذى يليه حتى الجمعة الأخرى، فقام ذلك الرجل، أو قال رجل غيره فقال: يا رسول الله اتهدم البناء وغرق المال فادع الله لنا فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا» قال: فما يشير بيديه إلى ناحية من السحاب إلا تمزقت حتى صارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادى وادى قناة شهراً، ولم يجىء رجل من ناحية البوادى إلا حدث بالجود.

أخرجه البخارى [٢/ ٣٤٢] ومسلم [٨٩٧]

سنة: أى قحط.

ينحدر الماء من لحيته: أى خرت السقف حتى خلص (أى نزل) الماء إليه.

الجوبة: الفرجة فى السحاب. **الجود** : المطر الكثير.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٧.

إن الحق سبحانه العليم بخلقه، يعلم أن الإنسان قد يتعجل أمرا فيه شرٌ له فلا يستجيب له، وفي عدم تحقيق الدعاء خير للإنسان، وينال به الإنسان حظًا من العبادة إذا كان يدعو بما يظنه خيراً.

الإنسان يدعو الله لأنه يعرف أن الأسباب الإنسانيه لم تقو على تحقيق ما يطلبه. لذلك فالإنسان يتجه إلى الحق سبحانه الذى يقول:

[من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أضعاف ما أعطى السائلين][1].

وها هو رسول الله ﷺ يعلم السيدة عائشة أم المؤمنين أدب الدعاء، فقد صادفتها ليلة القدر فسألت رسول الله ﷺ قائلة:

ـ يا رسول الله أرأيت إن علمت أى ليلة.. ليلة القدر ماذا أقول فيها؟

السيدة عائشة تعرف أن مقاييسها فى الخير دون مقاييس الرسول ﷺ فأرادت أن تتعلم شيئا نافعًا فقال الرسول ﷺ لعائشة: «**اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى**»[2].

إذن هل هناك ما هو أفضل من العفو؟.. فعلى العبد الذى يخطىء فهم قول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) عن ابن سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يقول ـ الرب ـ عز وجل: [من شغله القرآن، وذكرى عن مسألتى، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه]:
أخرجه [٢/ ١٥٢] وقال حديث حسن غريب.

(٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله ﷺ أرأيت إن علمت أى ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «قولى اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى».
أخرجه الترمذى [٣٧٦٠] وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى [٢٧٨٩]

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(١).

إن العبد عليه أن يعرف أن الله يستجيب للدعاء بما يحقق الخير. وإذا لم يستجب الله للدعاء فعلى الإنسان أن ينتظر ويرى أن تفاعل قضايا الوجود السائدة فى المجتمع إنما توضح له بعد فترة أن ما دعا به من قبل لم يكن خيراً، وليعلم الإنسان أن تأخير إجابة الدعوة فى بعض الأحيان هو عين الخير.

شروط الدعاء المستجاب:

والدعاء أيضا له شروط(٢) .. كى يكون مجاباً منها:

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٢) **ومن شروط الدعاء.**

■ **العزم:**

فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ. «لا يقل أحدكم الله اغفر لى إن شئت، اللهم ارزقنى إن شئت، ليعزم مسألته، فإنه يفعل ما يشاء لا مكره له».

أخرجه البخارى [١١/ ١١٨] ومسلم [٢٦٧٩] (٩)

■ **كذلك الدعاء فى أوقات وأماكن يستجاب فيها منها:**

(أ) **فى جوف الليل:**

عن عمرو بن عبسة: أنه سمع النبى ﷺ يقول: «أقرب ما يكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة فكن».

أخرجه الترمذى [٣٥٧٩] وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى [٢٨٣٣]

(ب) **عند السجود:**

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد=

أولاً: طيب المأكل.. ولنسمع قول رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين»(1).

وقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب.. يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له»(2).

= فأكثروا الدعاء» أخرجه مسلم (٤٨٢)

(جـ) عند رؤية مبتلى :

عن سالم بن عبد الله عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل رأى مبتلى، فقال: الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به، وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلاً إلا لم يصبه ذلك البلاء كائنا ما كان».

أخرجه الترمذى [٣٤٢٧]

(د) عند دخول السوق:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحى عنه ألف ألف سيئه ورفع له ألف ألف درجة».

أخرجه الترمذى [٣٤٢٨] وحسنه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى [٢٧٢٦]

(١) عن أبي هريرة لله قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر المرسلين. فقال: ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إني بما تعملون عليم**﴾ وقال: ﴿**يا أيها الذين ءامنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب ! يارب! ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك.

أخرجه مسلم [١٠١٥]

(٢) قال ابن كثير: الأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة. (تفسير ابن كثير: ١/ ٢٠٥)

وقال الله تعالى:

﴿يَآ أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُواْ صَالِحًا﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[2]

إن الحق سبحانه يطلب من الداعى الذى يدعو أن يكون جهاز الدعوة فى أعماقه صالحاً، فالدعوة لا تستجاب من عبد جهاز الدعوة فيه غير صالح.. وهى نفس ترضى بالحرام..

* مطعماً،

* ومأكلاً،

* ومشرباً... فكيف يستجيب له الله ؟!.

والإنسان قد يدعو بشىء فلا يحققه الله لأنه سبحانه يريد أن يأخذ بيدك إلى مجال حكمته فيمنع عنك ما يضرك.

ثانياً: وشىء آخر قد يحجب عنك الإجابة للدعوة. فالله إن أعطاك كل ما تحب فقد أعطاك خير الدنيا الفانية، وهو يحبك ويريد أن يبقى لك الإجابة إلى خير الآخرة الباقية. إذن ففى الدعاء أيضاً ارتقاءات ففيه.

* مناجاة لله،

* وخضوع لله،

* وخشوع لمشيئته.

(١) سورة المؤمنين: الآية ٥١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٢.

لذلك فهو يهب الإنسان الكبرياء أمام غير الله.

ورسول الله ﷺ يقول:

* «ما من رجل يدعو الله إلا استجاب له، فإما أن يعجل له فى الدنيا، وإما أن يدخر له فى الآخرة، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل»(١).

أدب الدعاء(٢):

الحق سبحانه وتعالى قد يؤجل عطاء عبد لأن دعاء هذا العبد يقرب أعماق هذا العبد من الله.. إنه عبد واثق من الله..

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو ليس بإثم ولا بقطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له فى الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها» قال رجل: إذاً نكثر. قال «الله أكثر».

أخرجه البخارى فى الأدب المفرد [٧١١] والترمذى [٣٥٧٣] وقال الألبانى فى حسن صحيح. (صحيح سنن الترمذى: [٢٨٢٧])

(٢) ومن آداب الدعاء

■ رفع الأيدى:

عن عائشة رضي الله عنها أنها رأت النبى ﷺ يدعو رافعاً يديه يقول: «إنما أنا بشر فلا تعاقبنى إيما رجل من المؤمنين آذيته أو شتمته فلا تعاقبنى فيه».

أخرجه مسلم [٨٨٠]

■ السؤال ببطن الكف:

عن مالك بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم، ولا تسألوه بظهورها».

أخرجه أبو داود [١٤٨٦] وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود [١٣١٨]=

* يحب الله فيدعو الله بأدب الدعوة،

* ويتناغم مع الكون بالدعاء.

والعبد الذى يدعو الله، عليه أن يعرف أن الله لا يستجيب للقلب الغافل(١) المريض، وأن حضور القلب فى الدعوة والقدرة على الأخذ بأسباب الله هى التى تحقق الدعاء على أى وجه من الوجوه التى يراها الله صالحة للإنسان. وها هو ذا سيدنا إبراهيم خليل الرحمن.. يلقى فى النار، فجاءه جبريل..

وقال له : أما لك حاجة؟

فقال إبراهيم : أمَّا إليك فلا.

إن إبراهيم خليل الرحمن يعرف أن جبريل مخلوق الله، ومأمور من قبل الرحيم العادل، لذلك يذكر سيدنا إبراهيم ربه مالك كل الأسباب لأن حاجة إبراهيم الخليل تتحقق بإرادة الله لأن طلاقة القدرة تخرق الناموس لإبراهيم عليه

= ■ **الثناء على الله والصلاة على النبى قبل الدعاء:**

عن فضالة بن عبيد قال: سمع النبى ﷺ رجلا يدعو فى صلاته فلم يُصَلِّ على النبى ﷺ فقال النبى ﷺ: «عجل هذا» ثم دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم لِيُصَلِّ على النبى ﷺ ثم ليدع بعد بما شاء».

أخرجه الترمذى [٣٤٧٧] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٧٦٧]

(١) عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ».

أخرجه الترمذى [٣٤٧٩] وقال الألبانى: حديث حسن صحيح سنن الترمذى [٢٧٦٦]

السلام فلا تحرقه النار، لأن وظيفة النار الإحراق، ولكنها كانت بردًا وسلامًا على إبراهيم.

سيدنا إبراهيم عليه السلام لا يستكبر أن تكون له حاجة من عطاء الله وحده.

وها هو الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقع مريضًا فيدخل عليه من يعوذه فيقول الزائر:

ـ أتتأوه وأنت أبو الحسن ؟!!

فيرد عليه الإمام على :

ـ لا أشجع عَلَى الله .

الإمام على بن أبى طالب ﷺ يعرف أن العبد لا يجرؤ على أن يكون شجاعًا فى مواجهة الخالق سبحانه.. فكلنا ضعفاء أمام الله.

ومادام العبد ملتزمًا بمنهج الله فإن الحق سبحانه قريب منه يسمع دعوة الداعى إذا دعاه، لأن العبد المؤمن لا يسأل الله عن شيء يتنافر مع ما كلفه به من تكليفات إيمانية.

والله سبحانه وتعالى قد وجه الدعوة للناس كافة ليؤمنوا فمن آمن فهو مستجيب لدعوة الله، ومادام الإنسان قد استجاب بالإيمان لدعوة الله، فالإنسان المؤمن هو الواثق أنه لن يدعو أحدًا من دون الله سبحانه.

والعبد المؤمن يتوجه بالقلب الخاشع إلى الله القادر على إجابة الدعوة، وها هو قول الله يوضح لنا مثالاً لاستجابة الحق لدعوة المؤمن:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[1].

ومع آداب الدعاء أن يعرف المؤمن أن الله قريب منه، والعبد إذا ما أحب ربه عبده وأطاعه، فإن عطاء الله بلا حدود، والعبد إذا ما أقام دين الله، وعاش على منهجه فهو يعيش في صفاء في الدنيا، وفي الجنة في الآخرة.



(١) سورة آل عمران: الآيات ١٩٠/ ١٩٤.



لقد وردت عدة روايات فى تحديد ليلة القدر، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اطلبوها فى وتر العشر الأواخر من رمضان»[١] وعدم تحديد ليلة القدر يقصد منه الحق سبحانه وتعالى إشاعة طلب الخير فيها. فكأن الحق سبحانه يريد أن يعلمنا أن تميزها فى أن نحييها وإلا ستمر على الناس جميعا، لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يشيع مراسم الإحياء فى ليال أوسع، وإشاعتها فى الزمان دون تحديده كان نتيجة لمعصية، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ عندما خرج إلى أصحابه قال لهم: إنى جئت لأخبركم بليلة القدر، أما أنه قد تحاور ـ أى تجادل فلان وفلان ـ فرفعت[٢] .. فكأن الخير يرفع بالمجادلة، ذلك

(١) عن عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ قال: «تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من شهر رمضان» أخرجه البخارى [٤/ ٢٢٥]

(٢) عن أنس رضي الله عنه قال: أخبرنى عبادة بن الصامت أن النبى ﷺ خرج ليخبرنا بليلة القدر، =

لأن الجدال فى الكلام ضلال لقول رسول الله ﷺ: «ماضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أرثوا الجدل».. وهذا يدل دلالة واضحة على أن الخير يرفع بالجدل، فلولا الجدل لعرف وقتها.. أى وقت ليلة القدر، ولكنها أشيعت فى العشر الأواخر من رمضان.

وعدم تحديد ليلة القدر، هو لحكمة ربانية سامية وهى ألا تأخذ صفة الرتابة، وإن حددت فإن كل المسلمين يتحرون هذه الليلة المعنية، ولكن سبحانه يريد إشاعتها فى العشر الأواخر من رمضان.

ليلة القدر درة فريدة فى رمضان، والباحث عن الدر عليه أن يغوص فى الأعماق.. فى قاع البحار، والباحث عن ليلة القدر علية أن يجتهد فى زمانها يتركز ما ورواه لفخر الرازى فى هذا الشأن المشاع فى العشر الأواخر من رمضان.

شهر رمضان قد يكون ثلاثين يوماً، وقد يكون تسعة وعشرين يوماً، فحينما يكون الشهر كاملاً يكون العدد وتراً من ٢١، وحينما يكون شهر رمضان ناقصاً يكون وترا من ٢٠، فقد جعل الشفع فى الناقص وتراً. إذن فلا تضارب، وهذا يدل على أن رسول الله ﷺ استخبر غيباً بالشهر إن كان ناقصاً أو كاملاً..

فقال ﷺ: «التمسوها فى وتر العشر الأواخر»

= فتلاحى رجلان من المسلمين فقال: «إنى خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم فالتمسوها فى التسع والسبع والخمس».

أخرجه البخارى [٢٣٢/٤] ومسلم [١١٦٧] (٢١٧)

الاصطفاء.

إذا تأملنا فى الإنسان ، والزمان، والمكان لوجدنا أن الله سبحانه..

* اصطفى من الإنسان: آدم، ونوحاً، وآل إبراهيم، وآل عمران،

* واصطفى من الأماكن: مكة.

* واصطفى من المساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول، والمسجد الأقصى، فذلك قول رسول الله ﷺ : «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجدالأقصى»[1].

فعلة اختيار الله سبحانه للزمان هو عين الاصطفاء.. فالميزة أتت من الاصطفاء.

* فليلة القدر أخذت عظمتها من نزول القرآن الكريم فيها.. فهى عظيمة لذاتها.

* وإصطفاها الله من قبل نزول القرآن.

هذا جائز، وهذا جائز.. ولامانع من الأخذ بالرأيين.. ولكن نقول:

ماهى ليلة القدر؟

ليلة القدر هى التى نزل فيها القرأن.. أو هى التى يفرق فيها كل أمر حكيم.

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «لا تُشَدُّ الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى»
أخرجه البخارى [٢/ ٢٤] ومسلم [١٣٩٧]

ومادام يفرق فيها كل أمر حكيم فيكون اصطفاؤها قبل نزول القرآن فيها، وليس بسبب نزول القرآن فيها، ولكن تمام النعمة بنزول القرآن فيها.. فكأن القرآن الكريم جعل ليلة القدر فائقة القدر، واصطفاء الله لها كان قبل نزول القرآن، لأن قول الله سبحانه:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(١).

أى ليلة التقدير لكل مقدور فى الكون، وأعظم مقدور هو القرآن الكريم.. فهو قمة المقدور.

الخيرية:

القرآن الكريم أنزله الله سبحانه فى ليلة القدر، وهى خير من ألف شهر، والملائكة وجبريل ينزلون إلى الأرض بأمر من الله سبحانه فى هذه الليلة، وأن السلام يعم فيها حتى مطلع الفجر.

الله سبحانه أوجد القرآن باللوح المحفوظ.. القرآن أزلى، وهو صفة من صفات الله سبحانه وتعالى. القرآن الكريم نزل فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ليباشر مهمته فى الكون بـ: إفعل.. ولاتفعل.

(١) سورة القدر.

ونحن عندما نتأمل ليلة القدر سوف نجد أن السنة العربية والتقويم الهجرى يتبع القمر، فنجد شهر رمضان يأتى فى الشتاء أو فى الربيع أو فى الصيف أو فى الخريف، فما من يوم أو شهر أو فصل من فصول السنة إلا وشهد فيه رمضان. وعلى مسارٍ آخر كثيراً ما نجد أن ليلة القدر هى الأخرى جاءت فى كل يوم من أيام العام كله.

واختيار الليل فى قول الله سبحانه، هو اختيار للوقت الذى يتعبد فيه العباد الصالحون الذين يصدقون غيب الله، ويشهدون آياته، ويعبرون عن الإيمان بالعبادة. فقيام الليل للعبادة لايمكن أن يتم رياءٍ أو نفاقاً، إنما القائم للعبادة فى الليل هو العبد الخاشع لله سبحانه.

وليلة القدر كان اختيارها اختيار تشرف به البشرية كلها، لأنها ليلة يوزع فيها خير السلام على العباد الصالحين، وهى ليلة كما رأينا ليست مخصورة فى يوم محدد، إنما هى ليلة تمر على كل ليالى السنة فى فصول السنة المختلفة مع اختلاف مجىء شهر رمضان من فصل إلى فصل.

وليلة القدر تعرضت لزمان نزول القرآن، فقد أُنزل القرآن من اللوح المحفوظ الذى كان مستوراً فيه فكان نزول القرآن خيراً لا يستوعبه أحد باجتهاده وعلمه، لأن القرآن يستوعب كل أقضية الكون منذ خلق الله الكون إلى أن تقوم الساعة. ونزول الملائكة والروح الأمين ـ جبريل ـ هو أمر غيبى من أمور الغيب التى نصدقها.. فنحن نصدق الغيب كما أمرنا الله سبحانه.

وليلة القدر خير من ألف شهر.. والمسلم إذا أمضى ليلة القدر فى تعبد

صادق فإنه ينال صفاء وسلام النفس[1]. إذن فالفرحة والبهجة بليلة القدر لاتكون إلا إذا كانت آثار القرآن الكريم قد اتضحت فى سلوكياتنا، وتعطرت به أرواحنا.. فمن فيض الرحمن ارتوت النفوس فخشعت لله سبحانه وتعالى.

فضيلة الليلة عند الله :

فيقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

الله سبحانه أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وكما قال ابن عباس:

ـ أنزل الله القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل الملك مفصلاً بحسب الوقائع فى ثلاثة وعشرين عاماً على رسول الله ﷺ.

فعندما نسمع كلمة نزل نجدها منسوبة إلى ما أوكل الله به جبريل الملك لينزل بالآيات منجمة على رسول الله محمد ﷺ.

والحق سبحانه حين يتحدث عن نزول القرآن بواسطة الروح الأمين جبريل فيقول سبحانه:

(١) سورة القدر: الآية ١.. فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»

أخرجه البخارى [٤/ ٢٢١] ومسلم [٧٦٠]

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾[1].

إذن فكلمة: أنزل.. بها همزة التعدية لإبراز القدرات اللانهائية للحق سبحانه الذى أنزل القرآن الكريم من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم حمله جبريل ـ الروح الأمين ـ إلى الرسول الكريم محمد ﷺ مناسبًا للأحداث، ومناسباً للظروف.

وكأن الإنزال فى رمضان جاء مرة واحدة، وإذا كان بعض أهل الضلال يحتجون على الإسلام متسائلين:

ـ كيف تقولون إن رمضان أنزل فيه القرآن مع أنكم تشيعون نزول القرآن فى كل زمن، فتقولون هذه الآية هنا، وتلك الآية نزلت هناك؟

لهؤلاء نقول:

ـ إن قول الحق: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾.. يعنى أن الله سبحانه أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا وكان ذلك فى شهر رمضان فى ليلة القدر، ثم نزل منجمًا على الرسول الكريم ﷺ بواسطة الملك جبريل.

والنجم هو القسط القرآنى الذى حمله جبريل الملك من السماء الدنيا موافقاً للحدث الأرضى. وشاءت إرادة الحق ذلك لينزل الحكم فى كل أمر بما ينفع الناس فى لحظة حاجتهم للحكم، وليستقر الحكم فى نفوس المؤمنين[2]..

(١) سورة الشعراء الآيات ١٩٢/ ١٩٣.

(٢) قال ابن عباس ﷺ: نزل القرآن فى شهر رمضان فى ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا =

ولنضرب هذا المثل للتقريب من الذهن الانسانى المحدود ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ : إن الإنسان حين يريد تجهيز صندوق إسعافات أولية في المنزل، فهو يضع فيه من كل صنف نوعاً، ولحظة أن يحتاج منه إلى دواء فأنه يفتح هذا الصندوق ليأخذ الدواء المناسب فلا يحدث له لبس أو اختلاط.. فما بالنا بقدرة الحق سبحانه وتعالى؟

إن قدرة الحق سبحانه هى التى أوجدت الإنسان، وعلم الحق أعلم بالإنسان من نفسه، ولذلك حين يريد الحق سبحانه أن يثبت حكماً من الأحكام، أو أن يعالج قضية من قضايا الوجود فأنه يأمر الروح الأمين أن..

* ينزل بالقسط المناسب،

* والحكم الملائم وقت احتياج الإنسان للحدث من السماء الدنيا.

وقد كان الملك جبريل ينزل فى أى وقت من أوقات البعثة المحمدية، وهو الوقت الذى يريد الله سبحانه أن يبلغ رسوله بالحكم الذى يعالج قضية من القضايا.

والحق سبحانه الذى أنزل القرآن يقول:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾[1].

= جملة واحدة، وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء ولا يجئ المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه وذلك قوله تعالى ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ (تفسير ابن كثير: ١/ ٢١٦)

(١) سورة الإسراء: الآيات ١٠٥/ ١٠٦.

والقرآن ككتاب حق نزل به الملك جبريل على رسول الله البشير النذير فرسول الله يبشر بالجنة من أطاع، وينذر بالنار من عصى.

والقرآن نزل على رسول الله لتثبيت الفؤاد على مراحل الدعوة حسب أحداثها.. وأحداث الدعوة كثيرة، وكل موقف فيها يحتاج إلى تثبيت فؤاد الرسول الكريم وأفئدة المؤمنين. لكن لو أنزل الله القرآن الكريم مرة واحدة على رسوله لكان تثبيتاً واحداً، ولكان ذلك مخالفاً لأسلوب المعجزة التى أرادها الله لرسوله ﷺ. فبالقرآن الكريم صارت المعجزة الحسية أبد الدهر هى القرآن، ونزول القرآن مناسباً للأحداث جعل من أمر الدعوة الخاتمة أمراً مقبولاً وخالداً.

واقرأ قول الله سبحانه:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾[1].

وقد قال كفار مكة:

ـ لماذا لم ينزل القرأن على محمد دفعة واحدة كما حدث مع التوراة؟[1].

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

(٢) الصحف والتوارة والزبور والإنجيل نزل كل منها على النبى الذى أنزل عليه جملة واحدة وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا =

ورد الحق سبحانه وتعالى: إنا أنزلناه مفرقًا ليقوى به قلب الرسول الكريم، وليحمله ويحفظه، وفيه التفصيل الواضح البديع، والنور الساطع الذى يدحض شبهات المبطلين.

الحق الأعلى سبحانه يعرف أن الرسول ﷺ سيتعرض لمنغصات شتى، وكل منعض يحتاج إلى كشف، وإلى تهيئة، وتهدئة، وإيضاح. لذلك كان القسط القرآنى ينزل ليثبت فؤاد الرسول الكريم، ونزل القرآن الكريم مرتلاً ليسهل حفظه وفهمه وهضمه.

فإذا أراد أهل الضلال أن يمعنوا فى ضلالهم فالحق سبحانه يقول:

﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[1].

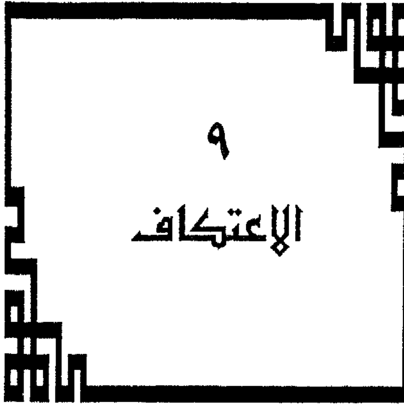
الحق سبحانه يبلغ رسوله أن أهل الضلال قد يسألون عن أشياء يحاولون بها أن يشوهوا نور الحق أو يقللوا من قدر القرآن فيسعفه الحق بالإيضاح الكامل والنور الشامل. فإن القرآن لو نزل دفعة واحدة على الرسول ﷺ فكيف يبرز التثبيت للفؤاد عندما يسأل المؤمنون عن بعض الأشياء؟



= بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ.

(تفسير ابن كثير : ١/ ٢١٦)

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٣.



العبد المسلم إذا ما احب الله: عبادة وطاعة.. فعطاء الله له بلا حدود، والعبد إذا ما أقام الدين، وعاش في منهجه فهو يعيش مع الصفاء في الدنيا، ومع الجنة في الآخرة. والحياة في ضوء منهج الله سبحانه لها حدود، وقد أوضح الله هذه الحدود، ولم يضن عن العباد بالآيات التي تكون نوراً يهدى إلى اليقين.

والصوم ـ على سبيل المثال ـ يعطى العبد كثيراً من النعم التي لا يمكن لعقل بشرى أن يحصرها ذلك لأن الصوم قد جاء لتصعيد الإيمان التعبدى للحق الأعلى الذى أكرم الإنسان بشرف العبادة لله.

والحق سبحانه وتعالى حين اصطفى شهر رمضان شهراً للتصعيد الإيمانى إنما كان ذلك الاصطفاء هو رغبة من الحق في أن تدخل كل الأزمنة في دائرة الاصطفاء إذ قال الحق سبحانه في حديثة القدسى:

«كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به..»[(١)].

فذلك تشريف للإنسان بعطاء الله بجزاء يختلف ويفوق كل ألوان الجزاء الأخرى.

ورسول الله ﷺ إذا كان قد سن سنة الاعتكاف[(٢)] فى العشر الأواخر من شهر رمضان، وذلك بإلزام النفس بالإقامة فى بيت الله فذلك لكى يخرج الإنسان من بيته إلى بيت الرب الكريم ليديم العبد الأنس الكامل مع خالقه.. خالق الوجود، فعلى المؤمن أن يبصر دائمًا العشق التكليفى الإيمانى لينال ارتقاء الصفاء، وإشراقات العطاء من الله سبحانه وتعالى.

والاعتكاف فى المساجد سواء بالليل أو بالنهار لا يعطى للمعتكف الحق فى شرعية المباشرة الزوجية[(٣)].

فقد قال الحق سبحانه وتعالى :

(١) سبق تخريجه.

(٢) عن عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ثم اعتكف أزواجه من بعده.

أخرجه البخارى [٤/ ٢٣٥] ومسلم (١١٧٢)

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: كان يعرض على النبى ﷺ القرآن كل عام مرة فعرض عليه مرتين فى العام الذى قبض، كان يعتكف كل عام عشراً فاعتكف عشرين فى العام الذى قبض.

أخرجه البخارى [٤٢/٩]

(٣) **الاعتكاف:**

فى **اللغة** : هو الحبس، والمكث، واللزوم.

■ **وشرعًا**: هو مكث فى المسجد من شخص طاهر بنية الاعتكاف، ويسمى جوارًا. =

﴿ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾[1].

والحد.. هو الفاصل المانع من اختلاط شيء بشيء، وحدود الله هى محارمة وذلك كما يقول رسول الله ﷺ: «ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه»[2].

= فالاعتكاف سنة بإجماع، ويتأكد فى العشر الأواخر من رمضان، كما يجب بالنذر.

■ **ولا يجوز للمعتكف:**

(أ) **مباشرة النسوة.**

(ب) **الخروج من المسجد لغير قضاء الحاجة** وهى.. التبول، والغائط (التبرز) والفصد، والحجامة (أخذ الدم من الرأس ومثلها الفصد أخذ الدم من أى مكان)

(حـ) **الخروج للأكل والشرب لعدم جوازها فى المسجد.**

■ **وفضل الاعتكاف** هو حفظ المعتكف من الشرور، ويكتب له كثواب فاعل الطاعات كلها لأنه حبس نفسه فى بيت الله تعالى طلباً لرضاه.

(التاج الجامع للأصول .. كتاب الصوم : ٢/ ١٠١)

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٢) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع فى الشبهات، وقع فى الحرام كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمة ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب».

أخرجه البخارى [٥٢] ومسلم [١٥٩٩]

والله سبحانه وتعالى عند أمره بالنهى عن شىء فهو يقول : ﴿ **فَلا تَقْرَبُوهَا** ﴾ .. وعندما يأمر بأمر فيقول سبحانه: ﴿ **لا تَعْتَدُوهَا** ﴾ .. ففى ذلك رحمة بالمكلف إذن.. فلا يصح للإنسان أن يجعل امرأته تأتيه وهو معتكف فى المسجد، فقد تكون جميلة، وأنه قد لا يكون فى نيته أن يفعل شيئًا.. لكن عليه أن لا يقرب أسباب النواهى، كذلك مثل الخمر لقد أمر الله باجتنابها.. أى لا يقترب حتى مكان شرب الخمر، لأن الاقتراب قد يزين للإنسان أمر احتسائها.

إذن فمن أجل أن يمنع الإنسان نفسه من تلك المحرمات عليه ألا يقرب النواهى.. فهى الأوامر على الإنسان ألا يتعداها.

والمعتكف هو من حصر نفسه، وحركته فى زمن معين وفى مكان محدد فالرسول ﷺ جعل من الاعتكاف سنة فى الأيام العشر الأواخر من رمضان فيحق للمسلم أن يعتكف فى بيت الله، وقد اختلف العلماء فى اشتراط الصوم وقت الاعتكاف، وهل يشترط له أن يكون فى المسجد؟

الاعتكاف إذا أراده المسلم فليكن فى بيت الله، مع حبس الحركة فى هذا البيت، ولكى يأخذ المؤمن ثواب الاعتكاف، فلا يجب أن يتكلم فى أى شىء لأن هذه اللحظات التى قيد فيها المؤمن حركته المطلقة فى الأرض.. فى بيت الله، فليجعلها لحظات لله، ومع الله للعبادة مثل:

الصلاة ،

وقراءة كتاب الله.

ولنا فى أحد الصحابة رضوان الله عليهم أسوة حيث يقول:

ـ كنا نخلع أمر الدنيا مع نعالنا.

وزاده صحابى آخر فقال:

ـ وزد يا أخى أننا نترك أقدارنا مع نعالنا.

انظر إلى دقة الصحابى فى النظر إلى أمر الاعتكاف حيث لا يخلع الدنيا فقط مع نعليه على باب المسجد، ولكن يخلع أيضًا قدره فى الدنيا لأن الدنيا تأخذ من الأوقات أغلبها والمسجد لا يأخذ منك إلا الوقت القليل.. فضع قدرك مع نعليك خارج المسجد، وادخل بلا قدر إلا قدر إيمانك بالله.

وكان رسول الله ﷺ يعتكف فى المسجد فى العشر الأواخر من شهر رمضان.. فهل معنى ذلك أن الاعتكاف لا يصح إلا فى المسجد؟.. لا، إن الاعتكاف يصح فى أى مكان.. لكن الاعتكاف بالمسجد هو الاعتكاف الكامل لأنه.

* يؤخذ فيه بالمكان،

* ويؤخذ فيه بالزمان معًا.





الحج والعمرة

﴿ وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾[1]

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٦.

قال الله تعالى:

﴿ ... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾(١)

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»(٢)

وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»(٣).

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٢) أخرجه البخاري [١/ ٧٣] ومسلم [٨٣].

(٣) أخرجه البخاري [٣/ ٤٧٦] ومسلم [١٣٤٩].



البيت الحرام بيت الله، والخلق كلهم خلق الله سبحانه. . . فلماذا تقتصر رؤية الخلق لبيت الله على القادر للذهاب، والإقامة عند البيت مثل إبراهيم عليه السلام ؟... فقد أراد الحق سبحانه وتعالى لكل مخلوق فى الكون أن يذهبوا لرؤية بيته الحرام، لأن هذا بيت الله باختيار الله، فهو سبحانه الذى اختاره بنفسه ووضعه للناس، ومساجدنا هذه هى بيوتِ الله أيضاً لكنها بيوت الله باختيار خلق الله، فالحق سبحانه أراد أن ينشر هذا الفضل على كل خلقه حتى يذهبوا لرؤية بيت الله الذى اختاره لهم فقد قال سبحانه:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[1].

(١) سورة الحج : الآية ٢٧.

وإن كان هذا أمر للرسول أيضاً وهو خاتم الرسل، وهو الحامل لكل مقومات أمر السماء فى جميع الأديان التى سبقت وأزمان خلت.

وكلمة ﴿ أذّن ﴾ معناها: أعْلِم بفتح الهمزة وكسر اللام، والعلم أول مرتبة من مراتبه الوسيلة فيه السماع بالأذن، ولذلك فالآذان هو الإعلام مثل قوله سبحانه:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[1].

فمعنى ﴿ أذّن ﴾ .. أى أعلم، وكلها جاءت من الأُذن لأنها وسيلة السماع الأولى، والخطاب المبدئى الذى به نتعلم كيف نقرأ.. فقبل أن نقرأ لابد أن نسمع. والحق سبحانه وتعالى عندما قال:﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ .. لم يكن بجوار البيت الحرام أحد إلا إبراهيم عليه السلام وزوجته وابنه إسماعيل، فى وادٍ غير مسكون ولا مأهول، والناس بعيدون عنه.

فيقول الحق سبحانه:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾[2].

وسيدنا إبراهيم عليه السلام سأل ربه ومن الذى سيسمع صوتى بالأذان

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٧.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

يارب؟ فقال له الحق سبحانه: عليك أن تُؤَذِّنَ وعليَّ البلاغ[1]، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾[2]

وقالوا في أصلاب بني آدم، وفي أصلاب الذرية كلها بعد إبراهيم عليه السلام، أن كل من سمع في عالم الذر آذاناً وقال:

* لبيك اللهم لبيك .. له ثواب حجتين

* وإن قال: لبيك اللهم لبيك .. وأخذ يكررها له ثواب بعدد ما قال.

ومعنى كلمة لبيك .. أي إجابة بعد إجابة.. . والله سبحانه طلب منا أشياء كثيرة، ولكن الأركان في الإسلام : أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، يقولها الكافر فيدخل بها في دين الإسلام، وتكرارها زيادة في الإيمان لندخل بها في الإسلام، ثم بعد ذلك نقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت. انظروا إلى هذه الأركان تجدوا الركن الوحيد الذي يدخله المسلم

(١) قال أبوجهم: أمر الله إبراهيم بعد فراغه من البناء أن يؤذن في الناس بالحج، فقال: «يا رب وما يبلغ صوتي؟ قال الله جل ثناؤه: أذن وعلى البلاغ».

(سبل الهدى والرشاد : ١/ ١٥٧)

وعن ابن عباس ﷺ قال: «لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: ربِّ قد فرغت فقال: ﴿ وإذن في الناس بالحج ﴾ .

قال: رب وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعلى البلاغ.

قال: رب كيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس كتب عليكم الحج، حج البيت العتيق فسمعه من بين السماء والأرض، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون».

أخرجه الحاكم في المستدرك [٢/ ٣٨٨] وقال: حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه

(٢) سورة الانفال: الآية ١٧.

باشتياق يسهل الله طريق الاستطاعة، فيحرم نفسه ويحاول أن يستكمل المال اللازم لنفقات هذا الأمر ألا وهو الحج، بينما لايتكلف هذه المشقة فى عبادة أخرى أبدًا، لأن فيه استدعاء للفطرة فينسى المشتاق إلى الله كل تعب وذلك لأن الله تعالى أمر وقال: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ ﴾ .. ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ فهم يأتون مسرعين إلى هذا المكان الطاهر، مصداقًا لدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾(١).

إذن .. القلوب تهوى إلى هذا المكان.. والهوى أمر لا يملكه الإنسان باختياره، لأنه لغة قلب، ونداء الرحمن إلى اختيار من يهوى إليهم. فتجد الإنسان يكون فقيراً وقد يدخر من قوته وقوت أولاده، ويحرم نفسه من متع الحياة ليوفر من المال ما يساعده على السفر لأداء فريضة الحج، إذن كلمة ﴿ وأذّن ﴾ .. ﴿ يأتوك ﴾ أمر وخبر صادق.

وبعض أهل الفهم قالوا: هل الأمر بالآذان للحج كان لابراهيم أو لأحد غيره ؟.. فقالوا: الأمر هنا عام والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيقول الحق:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾(٢).

(١) سورة إبراهيم : الآية ٣٧.　　(٢) سورة الحج : الآية ٢٦.

ومعنى ﴿ وَإِذْ ﴾ .. أى اذكر يامن أُنزِلَ عليه كتابى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ وأَذِّنْ فى الناس بالحج نداء من كل الرسل، وأمة محمد ﷺ لأن البيت الحرام كان مقدسًا على مر العصور والأزمان، وكان الناس يحجون إليه وكان منهم السقايا لخدمة الحجيج، فهذا النسك قد ثبت أن موسى عليه السلام حج إلى الكعبة[1] . ونقول : الذين يزعمون أن الذبيح هو إسحاق. ونقول لهم : لو كان إسحاق هو الذبيح لكانت عملية الذبح، والفداء، ورمى الجمار وغير ذلك عندكم فى الشام، ولكنها هنا فى مكة لأن إسماعيل عليه السلام كان هنا فى هذا المكان، ثم تذكروا جيداً أنكم قلتم فى كتبكم - فى الإصحاح [٢٣ ، ٢٤ من سفر التكوين] أن الله سبحانه وتعالى أوحى لإبراهيم أن يصعد على جبل «فاران» وأن يأخذ ولده الوحيد ويذبحه .

فولده الوحيد هو إسماعيل وليس إسحاق، لأن الله تعالى أخبرنا فى القرآن الكريم أنه فدى إسماعيل، وبشر إبراهيم بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب فقد قال سبحانه :

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة فمررنا بوادٍ فقال: «أى واد هذا؟» قالوا: وادى الأزرق. قال: «كأنى أنظر إلى موسى عليه السلام - فذكر من طول شعره شيئًا لا يحفظه داود - واضعًا إصبعيه فى أذنيه، له جؤار إلى الله بالتلبية ماراً بهذا الوادى» قال: ثم سرنا حتى أتينا على ثنية فقال: «أى ثنية هذه؟» قالوا: ثنية هَرْشَى أو لفت فقال: كأنى أنظر إلى يونس على ناقة حمراء عليه جبة صوف، وخطام ناقته ليف خُلْبَةٌ ماراً بهذا الوادى ملبيًا».

أخرجه ابن ماجه [٢٨٩١] وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجة برقم [٢٣٣٨].

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين ﴾(١).

ويعلم من الآية الكريمة أن إسحاق ويعقوب كانا نافلة.. أما الابن الأول لإبراهيم هو إسماعيل عليه السلام حيث يقول الحق:

﴿ يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾.

(١) سورة الأنبياء : الآية ٧٢.. قال ابن كثير: «ذهب **أهل الكتاب وجماعة** من أهل العلم إلى أن **الذبيح هو إسحاق**، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضًا، وليس ذلك فى كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك متلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب وأخذ ذلك مسلمًا من غير حجة.

وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى **أنه إسماعيل** فإنه ذكر البشارة بغلام حليم فى قوله: ﴿ **فبشرناه بغلام حليم** ﴾ (سورة الصافات: الآية ١٠١)، وذكر أنه الذبيح فى قوله: ﴿ **فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى** ﴾ (سورة الصافات: الآية ١٠٢). ثم قال بعد ذلك: ﴿ **وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين** ﴾ (سورة الصافات: الآية ١١٢).

ويقول ابن القيم فى «زاد المعاد فى هدى خير العباد» الجزء الأول فى فصل نسب الرسول ﷺ: وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهًا، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه - يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره (وحيده) ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذى غر أصحاب هذا القول: أن فى التوراة =

= التى بأيديهم: [اذبح ابنك إسحاق]. قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم؛ لأنها تناقض قوله: [اذبح بكرك ووحيدك] ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم ويحتازوه دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله، وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب فقال تعالى عن الملائكة إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿ **فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** ﴾ (سورة هود: الآيتان ٧٠، ٧١) فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب داخل فى البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب فى لفظ واحد، وهذا ظاهر الكلام وسياقه.

ثم يقول: ويدل عليه أيضًا أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى سورة الصافات قال: ﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًا مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ (سورة الصافات: الآية ١٠٣/ ١١٢). فهذه بشارة من الله تعالى على صبره على ما أمر به، وهذا ظاهر جداً فى أن المبشر به غير الأول؛ بل هو كالنص فيه.

ثم يقول: وأيضًا فلا ريب أن **الذبيح كان بمكة**؛ ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها كما جعل السعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه وإقامة لذكر الله، ومعلوم **أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة** دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذى اشترك فى بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذى كان على يد إبرهيم وابنه إسماعيل زمانًا ومكانًا، ولو كان الذبح بالشام ـ كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم ـ لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة.

وأيضًا.. فإن الله سبحانه **سمى الذبيح حليمًا**؛ لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه، ولما ذكر إسحاق سماه عليمًا فقال تعالى: ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ**

بعجلٍ سمين * فقرّبه إليهم قال ألا تأكلون * فأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف وبشّروه بغلامٍ عليم﴾ (سورة الذاريات: الآيات ٢٤/ ٢٨) وهذا إسحاق بلا ريب؛ لأنه من امرأته وهى المبشرة به، وأما إسماعيل فمن السرية.

وأيضًا فإنهما بشرًا به على الكبر واليأس من الولد وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك.

وأيضًا.. فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلاً، والخلة: منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق فى الذبح مصلحة إذ كانت المصلحة إنما هى فى العزم وتوطين النفس فيه فقد حصل المقصود، فنسخ الأمر وفدى الذبيح وصدق الخليل الرؤيا وحصل مراد الله.

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود ولم يكن ليحصل فى المولود الآخر دون الأول؛ بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضى الأمر بذبحة، وهذا فى غاية الظهور.

وأيضًا فإن سارة امرأة الخليل إبراهيم عليه السلام غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما وُلد إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة، فأمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنهما فى أرض مكة ليبرد عن سارة حرارة الغيرة، وهذا من رحمته ورأفته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحاله؟. هذا مع رحمة الله لا وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية؟!. بل الحكمة البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية، فحينئذ يرق قلب السيدة على ولدها وتتبدل قسوة الغيرة رحمة، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيت هذه وابنها منهم، ويرى عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد، آلت إلى ما آلت =



= إليه من جعل آثارهما ومواطئ أقدامها مناسك لعباده المؤمنين، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره، فقد قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (سورة القصص: الآية ٥) وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. ا . هـ. [بتصرف يسير].

(تفسير ابن كثير : ٤/ ١٨- ٢٠)



الحق سبحانه وتعالى حين وجه عباده المسلمين إلى الصلاة تجاه بيت المقدس، هل كانت القضية أن تظل القبلة إلى بيت المقدس، ثم أراد الله سبحانه بعد ذلك أن يوجههم إلى الكعبة ؟.

لقد كان الأصل فى التشريع الإلهى أن يوجههم إلى الكعبة المشرفة، وهنا لم يكن هناك دافع من واقع، ولكن كانت هناك إرادة من الحق سبحانه أن لايتوجه المسلمون بالصلاة إلى الكعبة، إلا بعد أن يثبت تطهيرها لله وحده، وبعد أن يتضح للناس بأنه لا محل لأى صنم من الأصنام فى الكعبة لأنهم كانوا يقدسونها على أنها بيت العرب، وكانوا يضعون فيها أصنامهم.. ووضع الأصنام فى الكعبة شهادة بأن لها قداسة فى ذاتها.. فالقداسة لم تأت بأصنامهم بل هم أرادوا أن يحموا هذه الأصنام فوضعوها فى الكعبة.. لماذا لم يضعوها فى مكان آخر؟ لأن الكعبة مقدسة بدون أصنام.

وحين يصدر الحق سبحانه الحكم بأن يكون التوجه فى الصلاة إلى الكعبة فهذا شحذ لهمة المسلمين أن يعملوا على نشر الإسلام، وتطهير البيت من الأصنام، وذلك لم يتحقق إلا فى الفتح.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أراد التوجه إلى بيت المقدس أولاً فذلك تثبيت للمسلمين ولغير المسلمين بأن دين الإسلام هو دين جامع لكل الأديان، وهو دين يحتوى كل دين قَبْلَهُ، فتكون القداسة للكل، وأن بيت المقدس من مقدسات ذلك الدين الجامع، وبذلك لا يمكن لأحد أن يدعى أن الكعبة المشرفة للإسلام، وأن بيت المقدس لغير الإسلام .. لا، الكعبة وبيت المقدس كلاهما للإسلام. ولذلك أُسرِى برسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ليثبت أيضًا قداسة بيت المقدس عندنا نحن المسلمين ، وجاء الإسلام جامعًا لكل الأديان، يقول الحق:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾(1).

إذن هنا قد أثبت الحق أن بيت المقدس قد يدخل فى مفهوم الإسلام. ذلك لأن مفهوم الإسلام متعدٍ :

* إلى كل الأزمنة ،

* وإلى كل الأمكنة ،

(1) سورة الشورى: الآية ١٣.

* وإلى كل المقدسات عند الله.

وبعد أن يثبت الحق للخلق أن الكعبة المشرفة هي بيت الله سبحانه فيصدر الحق الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة.

وكما ذكرنا سابقًا : إن جميع المساجد إنما هي بيوت الله باختيار الخلق أما الكعبة فهي بيت الله باختيار الله سبحانه وتعالى . إذن فيجب أن يتوجه المسلمون فى صلاتهم إلى الكعبة المشرفة لذلك كان التوجه إلى بيت المقدس يناسب القضية الأولى، وهى أن قداسة بيت المقدس عندنا نحن المسلمين إلى أن يثبت ذلك المعنى ، ثم يوجه الله المسلمين كلهم إلى الكعبة.

إذن فقد نسخ الله سبحانه القبلة من بيت المقدس، وجاء بخير من ذلك وهو التوجه إلى الكعبة، ولا يجب أن يقال : أنه مادامت الكعبة خيراً أكبر . فلماذا لم يوجهنا الخالق سبحانه إليها أولاً؟.. مثل هذا القول لا يجب أن يقال، لأن بيت المقدس فى زمن كان خيراً بمفهومه الأول فقد كان قِبْلَة، ولكن بعد أن نسخت القبلة من بيت المقدس فأنه يصير بيت الله فى الكعبة خيراً من بيت المقدس .

حكم الله :

الإنسان عندما يثوب ـ يرجع ـ إلى الله، فلا بد أن يكون فى أمن.. فلا فزع. والله سبحانه جعل بيته آمنًا، فطلب من المؤمنين به أن يجعلوا البيت الحرام آمناً.. فإن أطاعوا الله جعلوا هذا البيت آمنًا، وإن لم يطيعوا الله جعلوا الناس يفزعون، ولذلك نزل حكم الله سبحانه بقوله:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[1].

وكلمة البيت هذه تنصرف إلى بيت الله، فقد جعله سبحانه مثابة للناس.. أى يثوب الناس إليه، ويرجعون لأنه بيت ربهم سبحانه. فإذا أفزعك شيء فاذهب إلى بيت ربك لتجد رحمة ربك فى استقبالك، فيزيح عنك كل ما يتعبك فى الحياة.

كذلك جاء الأمر الإلهى بأن نجعل من مقام نبى الله إبراهيم عليه السلام مصلى.

والصلاة تطلق على الصلاة الشرعية التى نعرفها، وهى التى نفتتحها بالتكبير، ونختتمها بالتسليم وبشرائط مخصوصة[2].

وتطلق أيضاً على الدعاء.

وتطلق أيضاً على الصلاة على رسول الله ﷺ كما نذكرها فى التشهد بالقول: «اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٥.

(٢) عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم».

أخرجه أبو داود [٦١٨] وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٥٧٧]

وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد»[1] .

والله سبحانه القائل: ﴿ وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ... ذلك قول مقصود منه اسم مكان، مأخوذ من الفعل: قام.. أى أن الحق ينبهنا إلى أن المكان الذى قام إبراهيم عليه السلام منه ليعيد بناء الكعبة، وهو الْحَجْرَ الذى نراه فى الكعبة، فمنه أراد إبراهيم أن يرفع قواعد البيت الحرام.. هذا الْحَجْرَ يمكن الصلاة حوله وفيه ونحن متجهون بوجوهنا إلى الكعبة.

فى أمر بناء الكعبة :

المسلمون الأوائل كانوا يتحرجون من الصلاة فى هذا المكان، لأن المقام كان موجوداً بين المُصَلّى وبين الكعبة، لذلك كان هذا المكان يخلو من المصلين فلا يصلى فيه أحد، وهنا قال عمر بن الخطاب ﷺ لرسول الله ﷺ :

- ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى[2] ؟

لقد أراد بن الخطاب ﷺ أن تعم الصلاة كل المكان بحيث لا توجد جهة من جهات الكعبة إلا وفيها صلاة، وهنا أنزل الحق سبحانه هذا القول الكريم:

---

(١) عن كعب بن عجرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا: قد عرفنا كيف نُسلّم عليك فكيف نصلى عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

أخرجه مسلم [٤٠٦]

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى علىّ واحدة، صلى الله عليه عشراً».

أخرجه مسلم [٤٠٨]

(٢) استفهام عمرى أجاب عنه القرآن الكريم.

﴿ وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ .

وكان هذا من المواقف التى وافق فيها القرآن عمر بن الخطاب، فهناك أكثر من موقف قد وافقه فيه.. فقد أنزل الله آيات الحجاب حين قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله يدخل عليك البَرُّ والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟.. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه بَشَرٌ غير مؤيد بالوحى، فكأن الله يريد أن يثبت للناس أن الفطرة إذا.. أسلمت، وإذا.. شفّت فإنها بذاتها تستطيع أن تهتدى إلى حكم الله الذى قال:

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ... ﴾(1).

ولقد أراد الله لنا أن يكون أمر الفطرة الصافية واضحاً فى أحد الخلفاء الراشدين، وأحد صحابة رسول الله، ليعلمنا أن المنهج السليم لم يأت فقط من

(1) سورة النور: الآية 31 .. عن أنس قال: قال عمر رضي الله عنه : وافقت الله فى ثلاث أو وافقنى ربى فى ثلاث. قلت: يا رسول الله ! لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى. وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب. قال: وبلغنى معاتبة النبى ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهمن قلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله ﷺ خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نسائه، قالت: يا عمر أما فى رسول الله ﷺ ما يعظ نسائه حتى تعظهن أنت؟! فأنزل الله ﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات** ﴾

أخرجه البخارى [4483]

الرسول ﷺ المؤيد الوحي، والذى اختاره الله اسوة حسنة. إنما فطرة انسان مؤمن تستطيع أن تصفو، وأن تصل إلى حكم الله.. هكذا كان أمر اتخاذ مقام إبراهيم مصلى. ومقام سيدنا إبراهيم عليه السلام له قصة، وهذه القصة لها..

* صلة بتأصيل العقيدة فى نفس المؤمن،

* ولها صلة بالإتمام والإكمال الذى أُبتلى به إبراهيم حتى صار إماماً.

إن هذا المقام كان مكان قيام نبى الله إبراهيم عليه السلام فى بناء البيت، ولنا أن نعرف القصة بالترتيب الطبيعى لها وهى:

لقد أمر الحق سبحانه إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا البيت، وأن يرفعا القواعد، ولم يكن هذا الأمر قابلاً للتنفيذ إلا بعد أن أوجد الله البيت. إن الترتيب الطبيعى..

أولاً: أن يوجد البيت،

وثانياً : أن ترفع القواعد.

إن الحجر الذى كان يقوم عليه إبراهيم عليه السلام ليرفع القواعد من هذا البيت.. هو المقام. ويريد الحق سبحانه أن يلفتنا إلى أشياء.. هى أحداث قصة هذا المقام.

العلماء قد اختلفوا فى بناء البيت الحرام..

* بعضهم قال: إن البيت الحرام قد تم بناؤه فى عهد إبراهيم علي السلام،

* وبعضهم قال: إن البيت قد تم بناؤه فى عهد آدم عليه السلام.

* وبعضهم قال: إن البيت الحرام قد أوجده الله قبل آدم عليه السلام.

إذن.. بالمنطق والاستقراء العقلى، أن الآراء الثلاثة كلها مقبولة[1] ؟

العلماء الذين قالوا: إن البيت الحرام قد تم بناؤه فى عهد إبراهيم عليه السلام، لا بد أن نقول لهم: لقد أقمتم الدليل على رأيكم من قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[2].

وهنا لا بد أن نفرق بين: الرفع، والبناء.. إن البناء يستدعى ألا يوجد البيت، ثم يتم بناؤه بعد ذلك. أما الرفع[3] .. فهو الإعلاء والصعود. أى أن البيت الحرام كان موجوداً قبل إبراهيم عليه السلام.. طولاً وعرضاً.

لكن إبراهيم عليه السلام أقام البيت.. أى جعل له ارتفاعاً، وصار بذلك له

---

(١) قال قتادة: وضع الله البيت مع آدم، أهبط الله آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند، وكان رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض فكانت الملائكة تهابه فنقص إلى ستين ذراعًا، فحزن آدم إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم، فشكا ذلك إلى الله عز وجل فقال الله: يا آدم إنى قد أهبطت لك بيتًا تطوف به كما يطاف حول عرش، وتصلى عنده كما يصلى عند عرش، فانطلق إليه آدم فخرج ومد له فى خطوه، فكان بين كل خطوتين مفازة فلم تزل تلك المفازة بعد ذلك، فأتى آدم البيت فطاف به ومن بعده من الأنبياء.

(تفسير ابن كثير: ١/ ١٧٠)

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

(٣) يقال: ارتفع الشىء إرتفاعًا بنفسه إذا علا.

(لسان العرب: مادة رفع)

طول وعرض وارتفاع.. أى صار له حجم. كما قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾.

وهكذا نعرف أن..

* قواعد البيت قد انطمست بالسيول، أو عوامل التعرية، أو امتدادات الزمن،

* وأن الحق سبحانه أراد أن يظهر لنا «المكين» وهو مكان البيت الحرام.. أى المساحة التى أقام عليها إبراهيم جدران الكعبة وهى «المكين» ذلك أن القواعد كانت معلومة لإبراهيم عليه السلام.

ونحن نعرف أن الناس تصلى فى أى مكان فى العالم وتتجه إلى «المكين» وهو مساحة البيت الحرام الذى نتجه إليه فى الصلاة سواء كنا فى..

ـ الفضاء،

ـ أو فى نفق تحت الأرض،

ـ أو على سطح الأرض.

* ودليل آخر على أن «المكين» كان موجوداً قبل إبراهيم عليه السلام، وهذا الدليل هو غِيرة السيدة «سارة» عندما لم تتقبل وجود السيدة «هاجر» معها وابنها إسماعيل. فقد كانت «سارة» بغير ولد، وكان من الطبيعى أن تغار السيدة «سارة» من السيدة «هاجر». وأخذ إبراهيم عليه السلام هاجر وابنها إسماعيل إلى مكان البيت الحرام وذلك فى قول الحق سبحانه حكاية عن إبراهيم عليه السلام:

﴿ رَّبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ من ذُرِّيتي بِوَادٍ غَيْرِ ذى زَرْعٍ عندَ بَيْتك الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾(١).

وهذا مانفهم منه أن إبراهيم أسكن ابنه إسماعيل وهاجر عند البيت الحرام، ولم يكن مكان البيت الحرام محدداً بالضبط لنبى الله إبراهيم، فإنه يعرف المنطقة، لكنه لا يعرف المساحة، ولا يعرف حدود «المكين» فأرشد الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام إلى «المكين» أى مكان البيت الحرام ومساحته ليبدأ بعد ذلك إقامة البيت ومعه إسماعيل بعد أن كبر قليلاً ليعاونه فى رفع البيت الحرام فيقول سبحانه:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لا تُشْرِكْ بِى شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (٢).

إذن نتعرّف هنا على..

أولاً: أن «المكين» كان موجوداً قبل إبراهيم عليه السلام.

ثانياً: إبراهيم عليه السلام كان يعرف المنطقة التى يوجد بها البيت الحرام، أى «المكين» وإن كان لم يتعرف على مساحته بالتحديد.

(١) سورة إبراهيم : الآية ٣٧.

(٢) سورة الحج: الآية ٢٦.

ثالثاً: إن إبراهيم عليه السلام أسكن زوجته هاجر وابنها إسماعيل فى هذه المنطقة.

رابعاً : صدور أمر الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام أن يقيم البيت الحرام بعد أن أوضح له سبحانه مكانه بالضبط، فقد أوضح الحق مساحة «المكين» والذى يجب عليه أن يقيم القواعد له هو وابنه إسماعيل عليه السلام.

خامساً: إننا عندما نبحث أى أمر، أو قضية فى القرآن الكريم فإننا نجمع كل ما يتعلق بها من كتاب الله حتى لا نبحث فى آية بمعزل عن أخرى.

* والحق سبحانه وتعالى فى قوله:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] .

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٦..

وعدد المرات التى بنيت فيها الكعبة: قال السهيلى:

«وكان بناؤها فى الدهر خمس مرات،

- الأول: حين بناها شيث ابن آدم،
- والثانية: حين بناها إبراهيم على القواعد الأولى،
- والثالثة: حين بناها قريش قبل الإسلام بخمسة أعوام.
- والرابعة: حين احترقت فى عهد ابن الزبير بشررة طارت من أبى قبيس فوقعت فى أستارها فاحترقت.

وقيل إن امرأة أرادت أن تجمرها فطارت شررة من المجمرة فى أستارها فاحترقت، فشاور =

فمعنى ذلك أن الحق سبحانه يوضح لنا أن: .

أولاً: هناك بيتًا للناس هو أول بيت وضعه الله الحق للخلق من قبل أن يهبط

= ابن الزبير فى هدمها من حضره فهابوا هدمها، وقالوا: نرى أن تصلح ما وهى منها ولا تهدم. قال: لو أن بيت أحدكم احترق لم يرض له إلا بأكمل إصلاح. ولا يكمل إصلاحها إلا بهدمها، فهدمها حتى أفضى إلى قواعد إبراهيم فأمرهم أن يزيدوا فى الحفر فحركوا حجراً فيها فرأوا تحته ناراً وهلاً فأفزعهم فأمرهم أن يقروا القواعد ويبنوا من حيث انتهى الحفر. وفى الخبر أنه سترها حين وصل إلى القواعد، فطاف الناس بتلك الأستار، فلما أتم بناءها ألصق بابها بالأرض وعمل لها خلفاء، أى باب آخر من ورائها. وأدخل الحجر فيها لحديث خالته عائشة ﵂، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألم ترى قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم حين عازت بهم النفقة» ثم قال عليه الصلاة والسلام: «لولا حدْثَان قومك بالجاهلية لهدمتها وبنيتها على قواعد إبراهيم» قال ابن الزبير: فما بنا اليوم عَجْز عن النفقة فبناها على مقتضى حديث عائشة.

الخامسة : عبد الملك بن مروان هدم ما بناه ابن الزبيز وبناها على ما كانت فى عهد رسول الله ﷺ.

فلما فرغ من بنائها جاءه الحارث ابن أبى ربيعة ومعه آخر فحدثاه عن عائشة بالحديث المتقدم فندم وقال: وددت أنى لو تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك. ولما قام أبو جعفر المنصور أراد أن يبنيها على ما بناها ابن الزبير، وشاور فى ذلك فقال له مالك بن أنس: «أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره فتذهب هيبته من قلوب الناس فصرفه عن رأيه فيه».

وقال النووى فى «شرح مسلم» : قال العلماء. **بنى البيت خمس مرات (بنته) الملائكة، ثم إبراهيم، ثم قريش فى الجاهلية وحضر النبى ﷺ هذا البناء له خمس وثلاثون سنة وقيل: خمس وعشرون، ثم ابن الزبير، ثم الحجاج، واستمر إلى الآن، قال العلماء: ولا يغير هذا البناء.**

(إعلام الساجد بأحكام المساجد ص ٤٧/ ٤٩)